سيبـــاى الـكافلى

آخر نائب للمملكة المصرية بالشام

الأستاذ أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسورية ولبنان

كان ذلك فى جولة من تلك الجولات فى دمشق حين كان يحلو لى السير لمسافات بعيدة للتعرف على أحياء المدينة التى قلت عنها إنها « عاصمة وثغر ورباط »[1] . وذلك لما نقل عن أبى الدرداء من قوله : « إن أهل الشام مرابطون وأنهم جند الله »[2]

وكان ذلك فى ربيع سنة ١٩٤٣ ويد الله تحرك العالم وشعوبه وسط حرب عالمية شعواء ، والشرق العربى يتأرجح بين الصليب المعكوف ورمز النصر الديمقراطى ، وكان معى صاحبى وقد انتهى بنا المطاف إلى بناء عليه مسحة القرون المصرية التى نعرفها قلت : « هذا البناء لنا » وصاحبى يعرف مقدار شغفى بكل ما يذكر بمصر العربية الخالدة من عهد الأيوبية والبحرية والبرجية ، ففتح فاه وقال : « نعم ! ألا تدرى أنك أمام جامع سيباى » قلت : « ومن هو سيباى هذا ؟ » قال : « هو نائب الشام تولى إمرة السلاح بمصر » ثم عين نائباً للسلطنة المصرية بدمشق فى عهد سلطاننا الغورى طيب الله ثراه — قلت : « إذن هو آخر من حكم هذا البلد الأمين من أمراء مصر؟» قال : « نعم». سألته :« كم يفصلنا عنه من القرون ؟ » قال : « أربعمائة وأربعون عاماً » قلت : « لقد انتهت الفترة إذن وستبعث مصر بعثاً جديداً وستعود أيامها الخوالى وستلعب دورها التاريخى مرة أخرى » — ونظرت إليه محدقاً وقلت : « أو لم تؤمن بما أقول ؟ » . فابتسم صاحبى ابتسامة عريضة لها معناها . وتوجه إلى المسجد وقال لى : « أتدرى ماذا يقولون عن جامع سيباى ؟ يطلقون عليه اسم جمع الجوامع » قلت : « أى نعم أذكر جيداً جمع الجوامع فى أصول الفقه للسبكى المتوفى سنة ٧٧١هـ وأذكر الرواق العباسى بالأزهر وما ألقاه علينا أستاذنا الأكبر الشيخ الدجوى يوماً ما » قال : « لا ؟ وإنما أردت أن أقول إن بعض الظرفاء وإن كان الكرد على فى الجزء السادس من خطط الشام صفحة ٩٣ يسميهم العلماء يقولون إن صاحب هذا الجامع لم يدع بدمشق مسجداً مهجوراً ولا مدفناً معموراً إلا أخذ منه من الأحجار والرخام والأعمدة ما أحبه ؛ ولذلك سمى مسجده جمع الجوامع » واستمر صاحبى فى بحثه وشرحه ويقول : « استغفر الله ! ناقل الكفر ليس بكافر . كانت هناك مدرسة اسمها الخاتونية بالصالحية درست ، وأول من استفاد من أنقاضها سيباى هذا ، وكانت هناك تربة باسم الأمير بلبان المحمودى أتابك العساكر المصرية بالديار الشامية أخذ سيباى حجارة واجهتها لبناء جامعه هذا ولم يترك لصاحبها غير الضريح » واستمر يشرح لى هذه النقطة الغامضة بإسهاب جعلنى ألتفت إليه : « والله لو استعمل سيباى حجارة شارع جمال باشا بأكمله وأخذ رخام قلاع الكرك وحصن الأكراد ومصياف لما حال ذلك دون زيارتى لهذا الأثر المصرى ، فوفر عليك ما تقول وسر بنا نطوف به » . ودخلنا المسجد وأنا أطيل النظر فى الزخارف ومقرنصات الأبواب العليا وأترفق فى لمس الجدران والحجارة وأتأملها بين أبيض وأسود وكأنها تحدثنى وتحنّ إلىّ ، وكنت قد صعدت الدرجات واتجهت إلى الصحن فوجدت على يمينى جناحاً اتخذته جمعية الشبان المسلمين بالشام مقراً لها ، فخف أعضاؤها لاستقبالنا والترحاب بنا ، وكنت مبايل الفكر سارحاً ، فأخذت بذراع صاحبى على جنب وهمست فى أذنه : « أبلغت القحة أن تطأ الأقدام ضريح أمير من أمراء مصر ويتخذ مدفنه مكتباً فلا ترعى لجسده أية حرمة !» فضحك صاحبى وقال : « لا بأس ! » قلت : « وما معنى هذا ؟ » قال : « خفف عليك ! إن سيباى قتل فى معركة مرج دابق مع الغورى ولم يضم عظامه لحد ولا ضريح ؛ والذى تراه أمامك ماهو إلا تربة فارغة » .

انتصر صاحبى وعرف كيف يسكتنى وكيف يقود الزيارة للصحن الداخلى ويلفت نظرى إلى مزولة من رخام كتب عليها أنها من عمل الفقير محمد زريق للوقت سنة ٦٦٢ ، ثم أخذنى إلى المصلى واستمر يحدثنى عما يعرفه عن المحراب والمنبر الجميل وما فيه من الزخارف والنقوش الهندسية .

(١) راجع الرسالة عدد ٤٢٠ بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٤٢

(٢) ابن عساكر صفحة ٥٨